

﴿ نظرة إشراف عام ﴾

﴿ على ديار نجد ^(١) ﴾

وكان اول اهل نجد ورؤسائهم : آل علي ثم انتقلت الى طلال فيندر
فمحمد الرشيد فعبد العزيز ثم الى ابنه متعب ثم الى خال متعب « سلطان »
ثم الى سعود أخى سلطان ثم الى سعود بن عبد العزيز أخى متعب .
ولهؤلاء ، في ذلك قصة تاريخية عجيبة طويلة لا يسع المقام ذكرها
ولما دالت إمارة آل السعود وافق آخرها نموّ إمارة محمد الرشيد
فانتقلت أكثر الكتب الى حائل . وانت تعلم أن لاصناعة ولا تجارة لأهل
حائل إلا الغزو لا غير . ومع ذلك فتراهم قد سبقوا غيرهم في العلوم العصرية
وذلك لاختلاف كبرائهم الى الامتانة ومصر والحجاز أيام السلطان عبد
الحميد المخلوع فأصبح البعض منهم يعرف اللسان التركي والفارسي
« وترى في بلادهم اليوم الكتب العربية القديمة النادرة الثمينة التي
لا ترى لها وجوداً في سائر البلاد العربية واغلبها غير مطبوع . وتوأنس
جماعة منهم تطالع الصحف السيارة والمجلات الموقوتة . واهل هذه الديار
متنورون أكثر من غيرهم من أهل تلك الاقطار في العلوم العصرية واوسع
اطلاعاً في الامور السياسية . ولهم ميل شديد الى الحكومة العثمانية ،
وهذا الميل أشد ظهوراً فيهم ممن سواهم . لكن الحكومة لا تزال في
ريب من أمر العرب واحجام عنهم . وعلى ما ارى : انها تود ان تكون في

(١) راجع ما جاء في الجزء الماضي ص ١٧٦

غنى عن نصرتهم . ولعلها تخاف من انهم اذا تمدنوا قلبوا لها ظهر المجن
وعادوا الى مجدهم السابق . وهذا كله من التخيلات السياسية ومن
الاهام التي لم تدر في خلد العرب

« ولما اتيت بغداد ورأيت الحالة الحاضرة ابدت ما اوجبه عليّ
الوطنية العثمانية والعربية للطرفين المتقابلين المتصلين بجامعة الدين وشرحت
ذلك بسلسلة مقالات بسطتها في جريدتي الرياض وبينت للعرب ما ينجم
من الفوائد الجمة اذا انضموا الى ابناء آل عثمان وصاروا يداً واحدة على
الاعداء . ولقد اثر كلامي هذا في ابناء وطني تأثيراً عظيماً كان ذا نتيجة
تذكر لكن ذهب هذا كدراج الرياح لما رأوا ان الدولة العثمانية لا
تغيرهم اذناً مصغية ولا أحلاماً واعية . فلعل الزمان يحسن النيات في ابناء
عثمان فيجني هؤلاء في بضع سنين ما لم يجنوه بحذرهم مدة سنواتٍ متطاولة
» هذا فضلاً عما شرحت للحكومة مما يجب ان تتخذه من الاحتياطات
اللازمة لمنع دخول الاسلحة الى بلاد العرب . وذكرت لها الوسائط
الحسنى للبلوغ الى تمدن صادقٍ وارسلته الى أحد مبعوثي العراق . وبعد
ان قرئ في المجلس حوّل الى النظارة . ولا ادري بعد هذا ما جرى به .
ولعله ضاع أو احترق مع جملة الاوراق التي ذهبت في احدي حرائق
الاستانة في هذه الايام الاخيرة

« أما ميلهم الى العلوم الادبية كالشعر والنحو وعلوم الآلة والسياسة
والاجتماع فما تظهر منافعه عن قريب اذا ما تحسنت الأحوال وتوفرت
وسائط النقل والانتقال بعد امد غير بعيد بمنه تعالى وكرمه

٣٠ القصيم - « البحث في علوم وآداب اهالي القصيم يتناول البلدتين المذكورتين اللتين تقوم منهما فأهل هذه البلاد لبسوا كأهل الديار الاخرى . فلقد دخلوا بتجارتهن البلاد الكثيرة من الاصقاع المتمدنة كالهند ومصر والشام ولندن ومدن اميركة . وتجد بعضهم قد توطن تلك الربوع كما احتل بلاد العراق كبيرها وصغيرها . ولقد تقدموا في التجارة احسن من غيرهم بكثير . وكذلك قل في العلوم على مختلف انواعها وتشعب افنانها . كل ذلك في البلاد المختلفة المذكورة كما في ديار قطرهم الواسع . فانك لا تسير الى بلد الا وتجدهم فيه منهم نفراً يتعاطى الامور التجارية غير مغفل العلوم المعروفة في تلك البلدة . ولهذا اذا تيسر لك فدخلت بلادهم ترى فيهم هذا يكلمك بالتركية ، وذلك يطارحك الكلام بالفارسية ، وتسمع واحداً يذاكر بالهندية ، ويقبل اليك آخر بالاطالية ، ويقرب منك صديق محب يخاطبك بالفرنسوية الى غير هذه اللغات من اردوية وتامولية وانكليزية

« أما التاريخ فهم يعتنون به اشد الاعتناء . وكذلك يزاولون علوم الاجتماع والسياسة مزاوله تفوق معالجة سواهم لها . وهنا نختصر القول زائدين على ما تقدم ذكره عن الامارتين الاوليين بخصوص العلوم والمعارف انه لا يوجد في تلك الربوع مدارس او مكاتب على ما نشاهده في البلاد الأخرى المتمدنة من ابتدائية ورشدية وكلية وجامعة . اما مدارسهم فهي مدارس خاصة بهم تشمل جميع المطالب وتجمع في ردهاتها كل طالب على السواء . فالتلميذ يأخذ اي كتاب كان أو اي كتاب اراد قراءته ثم يحضر

المدرسة ويقراه على المعلم الموجود فيها بدون أن ينتظم في سلك حلقة لتلقي العلم معاً من الأستاذ في وقت محدود كما هو الأمر الجاري في المكاتب المصرية المنتظمة

« ويوت أكثرهم ليست الأمدارس واندية علم ، اذ ترى فيهم من ينضم الى رفيق ثانٍ له او الى ثالث أو أكثر حسبما يتفقون عليه فيجتمعون في بيت واحدٍ منهم . او انهم يجتمعون في كل يوم في بيت غير البيت الاول بل في بيت الرفيق على التوالي فيتدارسون في الكتب التي وقعت بأيديهم وهكذا يفعلون حتى النهاية على ما كان جارياً في سالف الزمن في انديتهم ومجالسهم ومجتمعاتهم »

٦ اخلاق اهلها - « اخلاقهم وهي اخلاق العرب الاقدمين العزيزي النفس المتوقدي الذهن الاذكياء الأباة اخلاق لم تغيرها الحوادث والازمان فهم اليوم اهل كرم وشجاعة ووفاء وسماحة وحماسة وسيرتهم توافق قوانينهم وتنطبق عليها أتم الانطباق ولا تحيد عن الكتاب والسنة فهم يجلونهما اعظم الاجلال ولا يعتبرون سواهما . نعم يوجد بين القبائل من يجري على قوانين وسنن وشرائع راجعة اليهم وخاصة بهم يقومون لها ويقعدون لكن اذا جاؤوا المدن رجعوا الى الشرع الشريف في امورهم وشؤونهم الاجتماعية . هذا فضلاً عن ان لهذه السنن من المزايا والمحاسن ما تفيد كل الافادة تلك الاقوام في هاتيك الربوع ولولا ضيق المقام لأتينا على ذكر بعض منها اظهراً لمنافعها ولما اودعتها من الحكمة البعيدة المرعى والمبنى والمعنى »

٧ تجارتهم - « التجارة التي يتعاطاها اهل تلك الارحاء هي الخيل والابل وكلاهما من احسن ما وجد من جنسيهما في الدنيا كلها جمعا . واملنا نعتد يوماً فصلاً نذكر فيه ما يجب الوقوف عليه في هذا البحث . والتمر واتواعه كثيرة واسماؤه في تلك الاسماء القديمة لم تتغير وهذا يفيدنا في تصحيح بعض الالفاظ الواردة في هذا المعنى . والسمن . واسمه عندهم الدهن كما يسميه العراقيون . والصوف والوبر . ويذهبون بكل صنف من هذه الاصناف الى حيث يكون رواجه . فيذهب بالخليل مثلاً الى بلاد الهند . واغلب اصائل هذه الانحاء من نجد . وينقلون الابل الى مصر والشام . ويحملون التمر الى الحجاز . ويبيعون الدهن او السمن في البصرة والكويت والحجاز حسب الوقت الذي يوافق ثقله أو يصادف تصريفه وانفاقه في موطن دون الموطن الآخر الذي رخص فيه . وهذا هو سر أسفارهم المترامية وتغريبهم عن أقطارهم العزيزة . ولهم في ذلك من الصبر والجلد ما لا تراه في اقوام آخرين . فانك ترى الواحد منهم يقيم نائياً عن مسقط رأسه ثلاثين حولاً مثلاً ولا يتأفف من حالته البتة . وهم أهل سعي وكد وجد لا تقيمهم الاخطار الشديدة ولا الأهوال الهائلة عن الوصول الى ما به منفعتهم . أفبعد هذا تعجب من كون كثيرين منهم وصلوا الى لندن وأميركا والديار النائية . فلقد يقضي واحدهم الأيام الطوال والأعوام الكثار بدون ان يلتفت الى وطنه »

٨ زراعتهم - « اغلب زراعتهم متوقفة على الخنطة والشعير والذرة (الاذرة او الادرة) والسسم والدخن ويزرعون كل هذه الحبوب بقدر

حاجتهم اليها . واذا حبست السماء ماءها عنهم اضطروا الى جلب ما يحتاجون اليه من البلاد الاخرى كالكويت والبصرة والسماعة وغيرها . واقد كانت الزراعة تتقدم عندهم تقدماً عظيماً لولا أمران أحدهما جور الحكام ، والثاني قلة المياه . ولقد حاولوا مراراً استنباط المياه بالآلات المختلفة او حفر الآبار الارتوازية فلم يتيسر لهم ذلك لصعوبة الطرق ووعورتها بحيث لا تستطيع العجلات السير فيها . واما اذا قلت : فهناك جمال تضطلع بحملها . قلنا : تضطلع بحمل بعضها لا يكافئ لانه يوجد آلات ثقيلة غاية الثقل لا يحملها البعير الواحد بل ولا البعيران او الثلاثة ومن ثم اصبح نقلها من البعيد التحقيق . ولولا ذلك لاصبحوا في غنى عن الديار الاخرى في كل أين وأن . بل لزادت حاصلاتهم على نفقتهم ولربحوا من التجارة بما فضل عندهم اموالاً طائلة تأتيهم من البلاد التي ينفقون اليوم فيها اموالهم للحصول على ما يحتاجون اليه .

١٠ الصناعة عندهم - « ليس لهم من الصنائع الا ما لغيرهم من مجاورتهم اهل الكويت والبصرة كالتجارة والحداثة والسكافة والخياطة وما ضاهى هذه المهن . ومهارتهم في صناعة الاسلحة غريبة فانهم وان كانوا أخلاء من جميع الوسائل الميسرة لهذه الغاية فانك تراهم يصلحون ما يقع من انواع الخلل بينادق ماوزر ومرتيني . واغرب من هذا انهم يفرغون المدافع افراناً محكماً ويحسنون التصرف بالمدافع الجديدة الطراز حتى انك تخالهم انهم تلقوا علم المدافع عن اصحابه المهرة . واذا وقع في هذه الآلات خلل اصلحوه على اقوم وجه . ومع كل هذه البراعة والتفنن لا تشاهد

في ايديهم ادوات تامة العدد كما ترى في البلاد الراقية في المدينة . وعندى انه لو وجد في حوزتهم آلات تساعد على تحقيق امنيتهم لبرزوا في الصناعات على من سواهم ولأتوا بكل عجاب . واوقفك الآن على انرب من هذا كله : انهم يتحررون المباحث العلمية الدقيقة ويتبعون الاكتشافات الحديثة كالكهرباء والسلك الجوي وبعض الآلات البرقية وما ضاهى هذه الموضوعات الجديدة . واعهد واحداً في القصيم يضيء محله بالنور الكهربائي الذي هو من صنع يديه وقد ركب الاجزاء التي يتولد منه باعمال فكرته . واذا كانوا لا يحققون دائماً ما يعتقدون النية عليه فهو لأنهم في شغل شاغل عنه بما يقومون به من امر المعيشة وتطلبها في الاقطار النائية .

١٠ دياتهم - « بقي علينا ايراد امر الديانة والاعتقاد عندهم . فقد اسلفتُ وقلت انهم يعتمدون على الكتاب (القرآن) والسنة (وهي الحديث الصحيح عن رسول الله صلعم) ولدي بحث جليل في هذا الموضوع وهو لا يخلو من فائدة لمن يريد تتبع الحقائق على وجهها الصادق الصحيح واستقراء ثوابت الامور . ولعلي أعود الى هذا المجال في فرصة اخرى . »

١١ هواء البلاد - لا تكاد تلفظ كلمة نجد الا وتتصور هذه البلاد تحت عينيك ويهب عليك نسيمها وتلاعب امامك هواؤها الطيب الجاف لأن معنى « نجد » ما أشرف من الأرض وارتفع واستوى وصلب وغلظ . . . ولا يكون النجد الا قفاً او صلابة من الارض في ارتفاع مثل

الجبل معترضاً بين يديك يردّ طرفك عما وراءه... » (عن التاج) —
والهواء في منتهى الحرارة وقد تبلغ في الظل في بعض المواطن ٥٢ درجة
بالميزان المثوي . وعند الصباح يهب نسيم طيب لذيد في الصيف وإذا
تكبدت الشمس السماء انقطع الهواء في شهر تموز وآب وإيلول حتى
حتى يكاد الانسان يموت اختناقاً إلا أنه لجفافه لا يؤثر كثيراً في الصحة .
ويضطر من يسكن تلك الديار الى اتخاذ الماء كل الخفيفة الهضم والاتقطاع
عن المسكرات والامتناع عن الاطعمة المطبوخة باللحوم الثقيلة

١٢ تأثير الهواء في السكان — اعلم أن اغلب الأمراض تتولد هناك
من الكبد لشدة الحر . ومن مؤثرات الحر على اهل البلاد ان اغلبهم
ضعاف نحاف سمر الألوان طوال القامة الا انهم اقوياء يحتملون الجوع
والمطش والحر الى درجة لا تكاد تراها في سواهم . وهم عصبيو البنية ذوو
عزم شديد ومضاء بعيد اذا قصدوا شيئاً لا يرجعون عنه ولو كلفهم كرب
الموت واراقة الدماء وهم من بين جميع العرب سريمو تلقن العلوم والمعارف
بل هم يتلقفونها تلقفاً لسرعة تناولهم اياها . وكذا قل عن الصنائع والفنون
على اختلاف انواعها وضروبها

١٣ عدد السكان — ليس في بلد من بلاد العرب من يحصي عدد
الأنفس . هذا فضلاً عن ان هذا العمل يعدّ عندهم مشروماً . الا ان
العارفين يقدرون أهل نجد بما ينيف على مليون نسمة

١٤ نظرة وداع لبلاد نجد — يتضح لك مما أسلفنا ذكره ان بلاد
نجد من احسن بلاد جزيرة العرب تراباً وهواءً . ولهذا قال ياقوت في

معجمه : « لم يذكر الشعراء موضعاً أكثر مما ذكروا نجداً وتشوقوا إليها من الاعراب المتضمنة » من ذلك قول اعرابي :

حيناً الى ارض كأن تُرابها اذا امطرت عودٌ ومسكٌ وعنبرُ
بلادٌ كأن الأخوان بروضه ونور الاقاحي وشيُّ بُردٍ مُحَبَّرُ
أحنُّ الى ارض الحجاز وحاجتي خيامٌ بنجد دونها الطرفُ يقصرُ
وما نظري من نحو نجدٍ نافعٍ أجلٌ لا ولكني الى ذاك أنظرُ
أفي كل يومٍ نظرةٌ ثم عبرةٌ لعينيك مجرى ماؤها يتحدَّرُ
متى يستريح القلبُ اما مجاوزُ بحربٍ واما نازحٌ يتذكرُ
وقال اعرابي آخر :

فيا جذاً نجدٍ وطيبُ ترابه اذا هضبتُه بالعشيِّ هواضبةُ
وريج صبا نجدٍ اذا ما تنسَّمت ضحى او سرت جنح الظلام جنائبةُ
باجرعٍ يمرع كأن رياحه سحبٌ من الكافور والمسك شائبةُ
وأشهد لا أنساها ما عشت ساعةً وما انجاب ليلٌ عن نهارٍ يعاقبةُ
ولا زال هذا القلب مسكن لوعةٍ بذكره حتى يترك الماء شاربةُ

(بغداد)

ساننا

الاسباد والكهونية — كتب الينا مرسلنا البغدادي يقول : جاء في مقالة الاستاذ الشرتوني (الزهور ص ٦٢) « تحمله (تابوت العهد) الاسباد والكهونية » والصحيح تحمله الاصيار او الاسيار وهي جمع صير او سير وهو اسقف اليهود أو حاخامهم الكبير . والكهونية صحيحها الكهونية وهو جمع كوهن وهو الكاهن بلسان اليهود وقد ذكر هذه الرواية ابن خلدون في مواضع كثيرة وهو لا يستعمل لفظه كاهن العربية . وبنو خسمان (ص ٦٣) صحيحها بنو حشمتاي .